الكيان اللبناني ونقطة الزيت

بقلم الأستاذ ادمون الشدياق

ولقد " شق قيافا رداءه" غيظاً من كلمة الحق... هذه أولى الأفكار التي راودتني بعد قراءة مقالة السيد اسامة المهتار الأخيرة المنشورة في جريدة المستقبل بتاريخ ١٠/١٢/١٩٩٧. فهو في رده لم يبلغ من الحدة بمكان فقط، بل تناسى بأنه هو كان البادئ في كيل الشتائم عندما اتهمني والسيد حسين العبد الله بالجهل في رده علينا في المستقبل عدد ٣٠٤ الصادر في ١/١١/١٩٩٧، فلو راجع ملفاته، إن كان ناسياً، سيتأكد مما نقول. أما عن احتجاجه من نعتنا له بالمطبل والمزمر للاحتلال السوري فإننا لا نعتبر هذه النعوت شتيمة حيث أننا ألم نجد غيرها لنصف من يؤمن بعقيدة وفلسفة معينة ويدافع عن "متسلط ومحتل" يتبنى عقيدة تناقض كل ما يدعي أنه يؤمن به، فأين حزب البعث السوري من الحزب القومي السوري الاجتماعي؟ إننا نعِّد السيد المهتار بأنه في اليوم الذي يعلن فيه النظام السوري المحتل بأنه تبنى أفكار الحزب القومي السوري وبأنه في لبنان لينفذ وصية الزعيم انطون سعاده وأحلامه سننشر مقالاً نسحب فيه كلامنا.

ولكن حتى ذلك التاريخ سيظل السيد المهتار والذين يقولون قوله في نظرنا مطبلين ومزمرين لنظام قام على تلال الجماجم المطحونة تحت جنازير الدبابات. ونحن نسأل السيد المهتار كم مكتب أو قسم في سوريا للحزب القومي السوري؟ ولماذا هو ناظر إذاعة في الحزب القومي السوري ويروج لدولة لا تعترف بالحزب هذا؟ كما نتمنى على السيد المهتار بأن يوفر علينا محاضرات الشعب الواحد والوطن السوري الواحد، فهو لو أقنعنا يبقى عليه أن يقنع الرئيس السوري نفسه بهذا الطرح. فسوريا حافظ الأسد وحزب البعث لن يلتقيا "بسوريا انطون سعاده" عقائديا حتى لو التقى المتوازيان... فتاريخ وعقيدة حزب البعث تؤكدان ذلك.

احتلالهم أم احتلالنا: أما قول السيد المهتار "بأن أبناء دمشق وحمص وحماة والغوطه وحوران هم أيضا فينيقيون وكنعانيون ولهم في لبنان ما يحق لسكانه"، وأن هذا ما استنتجه من خريطة "العصر الإغريقي-الروماني" في المستقبل عدد ٣٠٧ الصادر في ٢٥/١١/١٩٩٧، نجيب على الاستنتاج ونقول، بأن هذا هو بعينه ما نحاول قوله منذ بدأنا

هذا الحوار يوم قلنا بأن سوريا هي التي تحتل أجزاءاً من لبنان وليس العكس كما حـــاول السيد المهتار الإثبات في مقالاته في الأعداد ٣٠١/٣٠٤/٣٠٧/ من جريدة المستقبل، ولهذا استشهدنا بالآية رقم ٣/٣ من سفر القضاة في مقالتنا السابقة لنثبت هذه المقولة. أما عـن ال ١٠٤٥٢ كلم، فنحن نعتبر بأنها المساحة ضمن الحدود الطبيعية التي كانت دائماً جـزءاً من لبنان و لم تتجزأ إلا في أوقات قليلة وكانت تعاد إليه بعدها على أساس أنها جـــزءاً لا يتجزأ منه ويجب أن تعاد. أما عن باقي المناطق التي هي جزءاً مـــن الجمهوريـــة العربيـــة السورية الآن فكانت حدود لبنان تشملها في كثير من الأحيان ولكنها لم تثبـــت نظـــراً لصعوبة التآلف الجغرافي بينها وبين باقي أجزاء لبنان. الغريب هنا أن السيد المهتار بعـــد استنتاجه بأن هذه المناطق كانت أجزاء من لبنان في الماضي يعود ويخصص نصف مقالتـــه تقريباً لمناقشة "حمة" و "حماة" ليثبت لنا بأن لبنان هو من يحتل أجزاءاً من سوريا (البقـاع-بيروت-الشمال والجنوب) وهكذا في مقال واحد يستنتج السيد المهتار الشيء ونقيضـــه "فما أحلاك يا برج بابل".

أما عن تزمّره من حشرنا إياه في ال ١٠٤٥٢ كلم، فإننا ندعوه بأن لا يحشر نفسه في هذه المساحة الضيقة ويوجه أنظاره نحو الدولة السورية ويجعل منها موطنه فهي أوسع وأشـــرح وموطن طبيعي لنظرياته ونتمنى عليه بأن لا يحتفظ بتلك الفكرة عن ضيق لبنان لنفسه بـــل نأمل أن يساهم في نشرها بين المليون ونصف مليون عامل سوري الذين يغص بهم لبنـــان، فلعلهم يصبحون من عداد الذيـــن يعـــانون مـــن عقـــدة خـــوف الأمـــاكن الضيقـــة claustrophobia فيرحلون عن لبنان الضيق فيرتاحوا ويريحوا.

"حماة" و "حمة" والمشوار الطويل: الأغرب من هذا كله أن السيد المهتار ما زال يجـــادل بقصة "حماة" "وحمة" "وجبل هور" و "صدد" مع أننا بيّنا له من قبل بأن مدخل حماة يقـع شمالي سهل البقاع لأنه مواز لمدينة صدد السورية. وللمزيد عليه مراجعة كتاب:

The Lebanon and Phoenicia, Brown, John, Pairman الصادر في بيروت عـــام ١٩٦٩ صفحة ٩٠ وكتاب:The land of the Bible, Aharon, Yohanon الصـادر في لندن عام ١٩٦٧ (صفحة ٦٤ - ٦٧).

إن الأدهى والأعظم من هذا كله أن السيد المهتار ولضعف حجته ونفاذ مصادره يستشهد بكتاب:The Bible came from Arabia للدكتور كمال الصليبي، هذا الكتاب الـــذي يقوض حجته أكثر مما يدعمها. وللقلائل الذين لم يطلعوا على هذا الكتـــاب ســـنعطيهم فكرة موجزة عنه. الدكتور الصليبي كتبه بالإنكليزية وعرضه علـــى معظـــم دور النشـــر العلمية في أوروبا فرفضت نشره حتى قبلت بذلك مؤسسة "دير شبيغل" الألمانية فنشـــرته سنة ١٩٨٥ باللغتين الإنكليزية والألمانية بعد أن كان مقرراً أن ينشر بخمس لغات. واجـــه الكتاب بعد نشره حملات واسعة في الأوساط العربية التي رأت فيه دعـــوة إلى إســـرائيل لاحتلال بلد عربي آخر غير فلسطين هو "بلاد عسير" الواقعة في غـــرب شـــبه الجزيـــرة العربية. ذلك أن الكتاب يعتبر أن الأسماء التي نقرأها في التوراة ليست موجودة في فلسطين بل في "عسير"، فلا وجود مثلا لأورشليم بل هناك آل شريم في جزيرة العرب، وبيت لحـــم هي أم لحم في "وادي أضم". ولبنان انتقل إلى الجزيرة العربية وصارت صور واحـــة مـــن واحات تلك المنطقة فغزت الشرق والغرب لا بأساطيل من السفن بل بقوافل الحيوانـــات. أما مدينة جبيل فصارت القابل في إقليم نجران، وصيدون صارت آل زيدان. أمـــا أرواد فصارت رواد في مرتفعات عسير (صفحة ٣٤ – ٣٥). إن هذه عينة من المراجـــع الـــتي يستشهد بها السيد المهتار الذي اتهمنا بالخفة وبقلة التمحيص وبقلة الحرص عند التعـــاطي مع النصوص التاريخية. وليظهر السيد المهتار حرصه في التعاطي مع النصـــوص التاريخيـــة يعطينا الدليل على أنه يعرف هشاشة مصدره عندما يقول "إننا لا نعرف ما سيكون حكم التاريخ على نظرية الدكتور الصليبي، ومع ذلك يستعمل ذلك المصدر كدعامة لنظرياتـــه. ودليل آخر لحرص السيد المهتار على التمحيص قوله "فليس ما يمنع أن تكـــون "صـــدد" بالقرب من "حمة" مع أن موقع مدينة "صدد" متعارف عليه منذ القدم ولا خلاف عليه بين المؤرخين وهو لم يجلب جديد ليحدده في مكان آخر. وبالله عليكم أين سمعتـــم في علـــم التاريخ بـــ "فليس ما يمنع أن تكون" فنحن في هذا نقر للسيد المهتار بالريادة وبقصـــب السبق فهو الأول في استعمال هذا المصطلح التاريخي.

تمايز أبناء الـــ ١٠٤٥٢كلم: واحد من الأسئلة التي شدد عليها السيد المهتار سؤاله هـــل أن الناس داخل " وهنا على الأرجح يقصد خارج" الـــ ١٠٤٥٢كلم هم شعب مختلـــف

التكوين عن الذين يقطنون مثلاً داخل الكيلومتر ١٠٤٥٢؟" وهنا نترك الكلام لشيخ المؤرخين اللبنانيين المؤرخ المرحوم جواد بولس ليجيب على سؤال السيد المهتار. المؤرخ جواد بولس يقول في كتابه "التحولات الكبيرة في تاريخ الشرق الأدنى منذ الإسلام" الصادر في بيروت عن دار عواد للطباعة والنشر صفحة (٢٦ -٢٧): "يرى البعض أن لبنانيي اليوم يتحدرون من سلالة الفينيقيين ويرى آخرون أنهم متحدرون من الكنعانيين أو الصليبيين أو العرب، أو غيرهم من الأجناس أو الشعوب التي قامت قي لبنان في العصور الماضية. والحقيقة التاريخية والعلمية هي أن لبنانيي اليوم هم خلفاء جميع الشعوب التي عاشت تباعاً في لبنان منذ فجر التاريخ، وقد طبعتهم بدون توقف البيئة الجغرافية اللبنانية بطابعها المميز ولا نستثني هنا السابقين منهم أو اللاحقين. فإذا أردنا مقارنة الشخصية اللبنانية بسائر الشخصيات الشرقية، نجد أن الشخصية السورية هي الأقرب إليها غير أن اختلاف البيئة الجغرافية في البلدين (الجبل والبحر في لبنان والواحات والبادية في سوريا)، يجعل منهما رغم التصاقهما جغرافياً إقليمين مختلفين جغرافياً وسياسياً، يكمل أحدهما الآخر اقتصادياً. إن ما يميز البلدين الواحد عن الآخر ماضياً وحاضراً يلخص في سجايا وطبائع ناتجة عن أسباب جغرافية واقتصادية وتاريخية مختلفة. فكل بلد منها يتميز عن الآخر على صعيد المناخ والموقع الجغرافي اللذين يطبعان سكان كل منهما بطابع مختلف، فالمناخ جبلي وبحري في لبنان، وصحراوي وبرّي في سورية. ويفصل هذين المناخين أسوار عالية، هي جبال لبنان التي تشكل سداً منيعاً بين الصحراء والبحر. إن تاريخ البلدين سورية ولبنان منذ آلاف السنين، يؤكد هذه الحقائق الراهنة: ذهنية ونفسانية برية وقارية وصحراوية في سورية، وجبلية وبحرية متوسطية في لبنان". هكذا يرى السيد المهتار بأن مجرد التزاوج بين بعض اللبنانيين والسوريين، أو رجوع أصول بعض العائلات السورية إلى لبنان أو العائلات اللبنانية إلى سورية، لا يجعل من الشعب اللبناني أو الشعب السوري شعباً واحداً. كما أن كلام المؤرخ جواد بولس يجيب أيضاً على تسائل السيد المهتار "هل نرى لبنان شعباً واحداً أم مجموعة شعوب؟". فنحن وكما جاء سابقاً نعتبر اللبنانيين شعباً واحداً ذو أصول وحضارات واديان مختلفة طبعتهم البيئة الجغرافية اللبنانية بطابعها المميز

ليكوّنوا لبنان ذو "الشخصية المميزة" لبنان واحة الحرية الوحيدة في هذا الشرق المستعبد، لبنان الـ ١٠٤٥٢ كلم الذي نحاول حشر السيد المهتار به.

"لسنا ضد سوريا في دمشق": وأخيراً كالعادة وكما في مقالاته السابقة أفرد السيد المهتار جزءاً لا يستهان به من مقالته للدفاع عن التسلط والاحتلال البعثي السوري للبنان. ومن خلال دفاعه الذي هو دائماً من المجلين بفنونه وصفنا بمنطق الاتهام بأننا "ننظر إلى دمشق من ناحية العداء المطلق"، وهذا ليس بصحيح، فإننا لم نكن يوماً ضد دمشق أو سوريا أو النظام أو الجيش السوري في دمشق، بل نحن ضد الوجود والتسلط السوري في بيروت. أما العداء لسوريا البعث ليس من منطلق العداء المطلق، بل هو من منطلق الدفاع عن النفس، ومن منطلق الدفاع عن الحريات، والسيادة، ولقمة عيش المواطن الذي أصبح يئن من الجوع، ومن منطلق الدفاع عن حرية القرار السياسي الذي بات بكليته بيد سورية وتخطى مرحلة القنوات إلى مرحلة الإدارة المباشرة، ومن منطلق الاستجابة لصرخات شبابنا الذين يتعرضون للتعذيب في دهاليز السجون السورية، وليس من تهمة يحاكمون عليها سوى حلم بإبقاء صفة "مواطن حر" في مجتمع الرعايا والأزلام، ومن منطلق الحفاظ على حفنة تراب حرة لكل ولد من أولادنا يملئ من عبقها تجاويف رئتيه ليبعد عنهما رائحة النتانة المنبعثة من الجيف المتحركة في شرق الديكتاتوريات. نعم يا حضرة الناظر، إن النفس الحرة، تأبى أن تتقيد بمنطق العداء المطلق، لأنها حرة، ولأن في حريتها سبب "تميزها" وتفوقها، وفي حريتها سبب انتصارها في النهاية. إن احتلال الأرض هو بعيد كل البعد عن احتلال النفوس والقلوب والفكر الذين هم ملك لله يغير فيهم ما يشاء وحينما يشاء ولا سلطة لسورية أو لغيرها في هذا المضمار. ونختم بكلمة للرئيس الشهيد الشيخ بشير الجميل بهذا المعنى ونتمنى أن تكون نقطة زيت في سراج لبنان الذي نتمناه مضيئاً إلى الأبد في عتمات الشرق والغرب. قال البشير الشهيد حامل مشعل ال ١٠٤٥٢ كلم "إن اللبنانيين يتمسكون ببقائهم المميز في هذا المحيط الجغرافي وهم كنقطة الزيت التي تحافظ على حجمها ولونها وشكلها وكيانها وصفائها إذا ما اختلطت بأي جسم آخر مهما كلن حجم الجسم ونوعه، وتبقى في رأس الأجسام مهما صغرت هي وكبرت واتسعت الأجسام الأخرى".انتهى المقال/ في تورنتو بتاريخ ١٩٩٧/١١/١٧